جزر الليل

قصة بقلم نايف شرف الدين

جو مغبر . وافق يحترق بنيران شفق مسائي . في الشارع تبدو الحياة في اوج نشاطها : سيارات غادية رائحة ، نولول وتتوعد . ومارة يتزاحمون ويتدافعون ، يعبسون حينا ويبتسمون حينا اخر . وانوار مصابيح وأعلان ترشح من أعمدة وحيطان ، زرق وحمر وصفر، متواصلة ومتقطعة .

ـ كأس اخرى يا مراد .

ذهب النادل وهو يبتسم ، متى يعاف عصير الليمون ؟

سحق ((محمود)) سيجارته في صحن معدني مثلث .. هز رأسه مرات .. اغمض جفنا وترك الاخر مفتوحا . هذه الذبابة اللعينة،سوف اسحقها .. وتردد صدى كف قوية .. اخرج من جيبه منديلا ابيض ، ومسح يده .

تناهى الى سمعه صوت نسائي :

ـ كلا . ليس هنا . بل هناك ، في الزاوية ، حيث نكون منفردين الى حد ما .

تابعت نظرات محمود المرأة صاحبة الصوت ورفيقها ، وهي تنعطف وتستقيم حسب خط سير الشابين ، اثناء اجتيازهما الطاولات والمقاعد.

القى نظرة على الشارع . كم تبدو اشكال البشر والسيارات غريبة من هذا العلو . ثم القى نظرة مرتعشة على ساعة يده . بقي ربع ساعة . وتلفت حوله فاحصا ، لا اعتقد بوجود طاولة انسب من هذه . كم اود لو كانت طاولتي اناى مما هي عن الاخريات . لا يهم . ليست الا مجرد بداية .

ـ عصير الليمون ، يا استاذ محمود .

وضع النادل الكأس واستدار مسرعا . وهو يبتسم ايضا .

رشف محمود رشفة طويلة . سوف ابرر لها سبب لجوئي الى الكذب . اذ ما كانت لتأتي لو لم اتصل بها منذ دقائق وادعي باني احمل اليها رسالة من اهلها ، من بلدها البعيد .. ترى ، هل عرفت صوتي ؟

لقد حاولت ان ابدله متصنعا بحة خفيفة . سبق وسمعت احدهم يقول : ((ان تبديل الصوت عبر الهاتف لامر سهل)) .

سهل ام صعب لا يهم ، طالما اني استطعت اقناعها بالمجيء.

خمسة واربعون يوما وانا الاحقها . انها سلبية الى حد الرعب .

سقطت كأس من صينية نادل . تبا لكم من مزعجين .

اني احبها . ليتها تعرف ذلك . احببتها من اللحظة الاولى التي التقيت بها في الطائرة . كانت تجلس الى جانبي . كانت منحة صدفة رائعة .

ـ المعذرة . يبدو اني فقدت قلمي . تسمح ؟

بصمت مجهد ناولتها القلم . واسترقت النظر الى بطاقة ، في يدها ، خاصة بالمسافرين : ليلى . موظفة في الشركة الرباعية . الشارع السادس .

ـ صدفة جميلة يا انسة .

ناولتني القلم وهي تبتسم :

ـ حقا ؟

ـ بلا شك .

اعلن صوت عن قرب موعد هبوط الطائرة في المطار . وتبادلنا نظرات .

ـ كان لقاء قصيرا . هل القاك ثانية في المدينة ؟

ـ لا اعتقد . دعها للصدفة .

كان من الجنون انتظار صدفة اخرى لاراها . عشرون مكالمة تليفونية ذهبت سدى : ((نعم . انا ليلى . ماذا ؟ يا اخي انا موظفة اتقيد بنظام خاص . لا تكلمني الا اذا كان لديك عمل في الشركة . مثل استيراد ، تصدير، الخ.. لا تكن مزعجا. انا لا أستطيع ان ارى احدا)).

قطعت حبل افكاره ضحكة نسائية رفيقة جدا . دارت عينا محمود، آليا ، وتركزت على المصدر الضاحك : ندى ! مبتكرة لائحة الاسعار الجديدة . صحن كريما وارفام تدون ، بسكين ، على سطحه . صفقة جنسية تتم بصمت . ابتكار يدهش العقول .

لم افهم هذه اللعبة في البداية . ما كان اغباني : ((هل قرأت هذا المخطوط يا محمود ؟ اقرأه جيدا قبل ان ابدأ بالتهامه . عجبا !))

يا الهي ! كم ضحكت على نفسي . ربع ساعة حتى فهمت انها تساوي ٢٥ دينارا .

انها تبدو الان في قمة انسجامها مع رفيقها الضخم . لا ريب انه دسم . شكله وسذاجته يوحيان بانه مدرار كبقرة هولندية .

صدحت موسيقى بخفوت : مقطع من باليه الجمال النائم ((لتشايكوفسكي)) . موسيقى ((تشايكوفسكي)) وصحن كريما تجري على سطحه مفاوضة ب ٢٥ دينارا ، في وقت واحد !

كم هو ممل الانتظار . رشف ما تبقى من عصير الليمون . سوف اضع حدا لحياة الليل هذه . ليلى ، انت منقذتي . حياة الفوضى ستنتهي بدءا من هذا اللقاء معك .

اني انشد الاستقرار من يوم رأيتك . سنتقاسم الحياة بشطريها : المر والحلو .

صدك جعلني اخجل من ماضي ايامي. تعيشين حياتك بطهر وبراءة. واعيش حياتي بصخب ومجون : خمر ونساء وسهر .

لم لم النق بك مبكرا يا ليلى ؟

جذب ناظريه مشهد في الشارع : شاب وفتاة التقيا ، فجأة ، وتصافحا وتبادلا ابتسامات . وسارا معا ، وبينهما يجري حديث .

الى اين يذهبان ، يا ترى ؟ الى محل نوفوتيه ؟ الى بيت احدهما؟ ام الى مقهى ؟ ثم هل وصلهما خبر تقليعة صحن الكريما الجديدة ؟

توقفت الموسيقى . اضمحل ((تشايكوفسكي)) . وصوت مذيع اعلن ، في الحال : ((نأسف لهذا الانقطاع بسبب عطل فني)) .

دائما موجودة اعطال فنية . انا ، ندى ، الصيد الدسم الذي بحوزتها ، الشاب والفتاة اللذان تقابلا منذ قليل في الشارع ، كلنا عرضة لاعطال فنية .

انفجر اطار ، واحدث دويا . جنحت السيارة نحو سرب من مارة، على رصيف الشارع . هوذا عطل فني اخر . تجمع الناس كخلية نحل. وحضر شرطي .

ـ كأس اخرى يا مراد .

اوما النادل برأسه ، وابتسم . خامس كاس من عصير الليمون .

القى محمود نظرة على طاولته . كم تلذ لي رؤية هذه الكؤوس الفارغة . اني اخلف الدهشة في وجوه النذل ، كل مساء ، باستبقائي هذه الكؤوس الفارغة ، على الطاولة ، حتى ساعة الانصراف .

ليس عليهم الا ان يرضوني . وعندما يملون لعبتي ، فمن السهل جدا ان يخفوا ابتساماتهم عني .

عادت الموسيقى الى الانسياب . « تشايكوفسكي » يملأ المكان . ونظر محمود بطرف عينه الى طاولة شبه ممزولة : ندى ايضا حضورها يملأ المكان .

تردد صوت رجل بخشونة : « اوقفوا هذا النواح . انكم تشيعوننا الى مثوانا الاخير ونحن احياء نرزق . عجبا ! » .

اشعل محمود سيجارة ، واخذ نفسا طويلا . بقي خمس دقائق . ما ابطأ سير الزمن هذا المساء . لم يجمدني انسان على طاولة كما جمدتني الليلة يا ليلى .

انهن يسعين الي سعي النمل الى حبيبات سكر . « ان لك وجها تجاريا يا عزيزي محمود » .

تجاري ! اي قابل للاخذ والعطاء .

لقد فضحتني تلك اللعينة . وقد رفضتها ذلك المساء .

اما معك فيختلف الامر يا ليلى ...

تفرق الناس من حول السيارة . وانزل السائق الة رافعة ووضعها تحتها . هوذا عطل فني في طريقه الى الاصلاح .

ارتفع صوت من مئذنة جامع ، مؤذنا المغرب : « الله اكبر .. الله اكبر .. » .

سوف اصارحك بدخيلة نفسي . ساكلمك عن حياتي جملة وتفصيلا . ماضي كله سافرشه امامك . سنبدأ بصفحة جديدة ، بيضاء، من الان .

ثلاث دقائق بقيت لحضورك . اني احسها وكانها الثلاثة القرون التي سبقت « عصر النهضة » .

الويل لي ان لم تأت .

« حي على الفلاح .. حي على الفلاح .. »

سوف أحطم الروتين . وشرب كاس العصير دفعة واحدة. ونادى على النادل :

ـ كاس عصير اختاره انت هذه المرة . لا ، ليس ليمونا بالطبع . اي عصير . لا تخف ، اني بكامل قواي العقلية .

ابتسم النادل باستغراب ، وانصرف .

من اين سابدأ معك الحديث يا ليلى ؟

ليس في هذا المكان الا موسيقى « تشايكوفسكي » منطلقا لحديث. سابدأ بالحديث عن باليه الجمال البائم فور حضورك . وبعدها يأتي الدور بالكلام عن جمالك انت : الجمال اليقظان .

ـ عصير الاناناس يا استاذ محمود . آمل ان تحبه .

لن احب شيئا قبل ان اتاكد من حب ليلى لي .

هل سافوز بحبها يا ترى ؟

قفز بصره الى اطار بلاطي ، اسود وابيض ، « لسكبة » زهور في منتصف دوار : ابيض .. اسود .. ابيض .. اسود .. ابيض .. انها بشائر عظيمة . هذه طريقة لا تختلف عن طريقة استعمال الزهور التقليدية لكشف الحظ .

انى خائف . وقلبي ينتفض كعصفور فزع . آن من يراني يدب الوجوم في نفسه : فارس الليل المغوار يرتعش للقاء امراة .

كلا . انت لست امراة كبقية النساء يا ليلى . انت فتاة فريدة من نوعك . واخافك لاني احبك .

لن ترفضي الزواج بي ، اليس كذلك ؟

من اي زاوية ستبدأ حياتك فيما لو رفضتك ؟

من زاوية الفراغ . من زاوية العدم . من زاوية اللاحياة .

انقطع التيار الكهربائي . واظلم الكون . هوذا عطل فني اخر . في الظلام يكف كل شيء عن آن يكون .

استؤنف التيار الكهربائي من جديد . وبرز كل شيء الى الوجود. خمس ثوان من الظلام . هل اختلس ، خلالها ، ذلك الفيل قبلة من ندى، استانفت السيارة المعطلة سيرها . وخلا مكانها .

برزت ليلى من منعطف الشارع . يا الهي ! نصف دقيقة ويملا حضورها المكان . واطفا سيجارته بارتباك .

هل ستقول لا ؟

كل شيء يقول : لا ، لن تقول لا .

امام رفضك سينهار عالمي الجديد يا ليلى . وامام قبولك تعود الي حريتي .

القى نظرة سريعة على ساعة يده ، انها السابعة . لقد بدات ساعة الصفر الرعبة .

تسمرت عيناه على مدخل المقهى . ستفاجيء المكان بحضورها كشهب نيزك . واول من يحترق بنيرانها هو انا .

دخلت ليلى : امراة حقيقية في العشرين ، مشرقة ، نشيطة، عطرها فواح .

وقف محمود في مكانه ، واوما لها بيده . سوف تسمع وجيب قلبي : قرع يكاد يشق الصدر .

ـ مساء الخير .

ـ مساء الخير يا ليلى . تفضلي بالجلوس .

ـ اين هي الرسالة ؟

ـ في الحقيقة ...

ـ اني اعلم . وفر عليك مشقة الاعتذار .

لقد كشفت لعبتي بنفسها . واوقعتني في هوة اعمق من هوة الاعتراف .

قال بتلعثم بعض الشيء :

ـ ماذا تأخذين ؟

وهي ترمقه بعينين نفاذتين :

ـ صحن كريما . وارجو ان يؤتى لي بسكين ايضا .

اوما للنادل :

ـ كريما للانسة ، ومعها سكين .

ـ انها لموسيقى رائعة ، اليس كذلك ؟

ودون ان ترفع نظرها عن الطاولة :

ـ اني لا احبها . في الحقيقة انا لا احب اية موسيقى ، باستثناء موسيقى الجاز .

لقد تحطم مفتاحك السحري . واوقعك « تشايكوفسكي » في ورطة . اين انت يا « لويس ارمسترونج » ؟

ـ هناك ما اود ان اقوله لك يا ليلى . فمنذ رايتك لاول مرة وانا ...

فقاطعتم بشيء من الحدة :

ـ وانت تطاردني . اني اعلم ما تروم مني . لست بذلك القدر من الغباء . اني اعرفك جيدا يا محمود .

واتى النادل بالكريما والسكين والملعقة ، ووضعها امام ليلى ، وانصرف .

ـ اذن ، انت تعلمين ؟ اوضحي لي موقفك مني .

تناولت ليلى السكين : سوف تدفع ضعف الثمن يا جرذ الليل . انا ما صدمتك كل هذه المدة الا لاحطم اعصابك واذيقك طعم اللوعة . انا لست سهلة كندى او كالاخريات. ان لي اسلوبي الخاص بهذا الشان.

وبدا ت السكين تحفر رقما على سطح الكريما : ٥٠ د.

الكويت

نايف شرف الدين